بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة في كَنَف الدولة

موازين وسُنَن

د. محمد بن بشر القباطي

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإني اكتب هذه الكلمات، ونار الحرب الموقدة فيما حول مضيق هرمز قد امتدت ألسنة لهبها وآثارها إلى مشارق الأرض ومغاربها، فأسمع كلمات ربّي تملأ قلبي: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]، فأستبشر بما تضمّنته هذه الآية من بشائر السُّنن والموازين.

فيا أيها الدعاة، أبشروا، فإن العاقبة الحسنة للمتقين، والله تعالى يهيئ بهذه الحوادث ظروفًا مليئة بالفرص لعباده

[1] سورة المائدة الآية (٦٤)

الصالحين؛ ليسبقوا العالمين إلى اقتناص تلك الفرص، ويقدّموا لهم الإسلام والسلام وصلاح الأحول.

أيها الدعاة، لقد جعل الله تعالى **للدعوة في أكنَاف الدول موازين شرعيّة وسُننًا ربّانية** تجب رعايتها حقّ الرعاية؛ لنحقّق مقاصد دعوة الإسلام في إصلاح أحوال العباد.

وإن من السنن الربّانيّة أن يبعث الله تعالى رسلًا في أمّهات القرى؛ لإصلاح الأمم والدول والمجتمعات ولإقامة الحُجّة عليهم؛ لأنّ أمّ القرى مَجْمَع القرى وفيها رؤوس الدولة وذوو السُّلطة والجاه والمال وأصحاب القوة والنفوذ الذين يصلح بصلاحهم العباد والبلاد، وأمّ القرى شبيهة بما نسميه اليوم "عاصمة الدولة".

ولما كان لأمّ القرى ذلك المركز وتلك المكانة، فقد اختصّها الله تعالى بذلك الفضل العظيم؛ لأن الدعوة إذا ظهرت فيها انتشرت بركاتها وآثارها إلى ما حولها، وعمّها جميعًا الصلاح والخير والعمران، فتنجو وما حولها من الهلاك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[1].

وكم في الأرض اليوم من أمهات القرى حقيقة بأن يعمرها العلماء والدعاة بما يهديها سواء السبيل؟

[1] سورة القصص الآية (٥٩)

وأودّ في مقدّمة هذا الكتاب أن أبيّن **أهمّ موازين الدعوة في كنف الدولة:**

الميزان الأول: إخلاص النيّة لله تعالى فتكون الدعوة كلّها خالصة لوجه الله تعالى؛ حتى تقبل، فإن فساد النيّة يحبط العمل، **وكذلك يجب علينا أن نحسن الاستعانة بالله تعالى ونتوكّل عليه**، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه.

الميزان الثاني: اتباع هدى الله تعالى من غير ابتداع ولا تلبيس ولا كتمان، فتكون مادة الدعوة بأصولها وفروعها من هدى الله من غير زيادة ولا نقصان؛ لأن هدى الله تعالى هو النور وهو الحقّ الموافق للفطرة الجامع لمصالح الدنيا والآخرة ولا مزيد عليه، وهو سبب السعادة والسكينة والأمن، وهو العاصم من الضلال والشقاء والضنك في الدنيا والآخرة، ﴿قَالَ اهْبِطَا

مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[1].

الميزان الثالث: اتباع منهاج النبوّة في تبليغ الرسالة، والدعوة إلى تطبيق الشريعة في الحياة، وذلك بأن يكون الخطاب والمقال مناسبًا للمقام والواقع الذي ندعو في كَنَفِه، فإن الواقع متغيّر ومتجدّد، وله استحقاقاته، والدعوة في كَنَف الدولة لها حقوقها العظام الثابتة والمتجدّدة، وقد دعا رسولنا عليه الصلاة والسلام ثلاث عشرة سنة في كنف أمّ القرى، وكانت الدولة والسلطة فيها للمشركين، ثم أتمّ دعوته في كنف الدولة المسلمة في المدينة النبويّة، فأحقّ الله تعالى بالدعوة النبويّة الحقّ وأزهق الباطل، ووضع الأمّة في صدر الأمم. وإن

[1] سورة طه الآيات (١٢٣-١٢٤)

مـن أهـمّ خصـائص منهـاج النبـوّة في تبليـغ الرسـالة والـدعوة في كَنَف الدولة خصيصتان:

الخصيصـة الأولى: الحفـاظ علـى صـلاح الدولـة وأمنهـا:

فقـد حـرص النـبيّ عليـه الصـلاة والسـلام علـى صـلاح الدولـة الـتي يـدعو في كنفهـا وحـافظ علـى أمنهـا واسـتقرارها وعمـل علـى وقايتها أسبابَ الفوضى والفتن والهلاك.

وقـد حـافظ رسـولنا عليـه الصـلاة والسـلام في كنـف مكّـة المكرمـة قبـل الهجـرة **علـى أمّـة الـدعوة، وقـد كانـت أمّـةً كـافرة ظالمـة رجـاء إسـلام ذريّاتهـم الـتي لا تـزال في أصـلابهم**، فقـد عـرض مَلَـكُ الجبـال علـى النـبيّ عليـه الصـلاة والسـلام أن يُهلـك أهـلَ مكّـة وهـو عائـد مـن الطـائف، فـأبى، قـال عليـه الصـلاة والسـلام: "فَنَـادَانِي مَلَـكُ الجِبَـالِ فَسَـلَّمَ عَلَـيَّ، ثُمَّ قَـالَ: يَا مُحَمَّـدُ،

فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[1].

أما الحفاظ على أمّة الإجابة، فمعلوم من الدين بالضرورة، وقد تواترت النصوص الآمرة بحفظ مقام الإمامة وولاية الأمر ووحدة صفّ الأمة المؤمنة؛ لما في ذلك من حفظٍ لدين الأمة وصيانةٍ لسيادة البلاد وأمنٍ للعباد على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، ولأن زعزعة الدولة تفضي إلى الفوضى وتمزُّق كيان الأمة، وفشلها وتسلّط الأعداء عليها.

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، دار الشعب – القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، كتاب بدء الوحي، باب الشُّرُوطِ مَعَ النَّاسِ بِالْقَوْلِ ح ٣٢٣١، وأخرجه مسلم بن الحجاج، في الجامع الصحيح، المسمى بصحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ١٣٩٢هـ، في الجهاد والسير باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين رقم ١٧٩٥.

الخصيصة الثانية: الحفاظ على العلماء والدعاة فيها؛ حتى يقوموا بواجبهم في هداية الأمة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[1]، فأمره الله تعالى بتبليغ ما أنزله إليه، وتكفّل له بالحفظ والعصمة من شرور الناس: "وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ"، وقال الله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[2]، فقد أمرهما الله تعالى

[1] سورة المائدة الآية (٦٧)

[2] سورة طه الآيات (٤٢-٤٤)

بتبليغ الرسالة وإيصالها إلى رأس البلد برفق ولين، وضمن لهما الحفظ والسلامة.

إن من الفرائض أن يُلازم أهل العلم والدعوة سبلَ السلام؛ حتى يتمكنوا من أداء دورهم في نصح قادة الدولة وأصحاب القرار، ويتيسّر لهم التأثير في المجتمع، ولا يجوز اعتزال العلماء والدعاة أو عزلهم عن وظائفهم أو الزجّ بهم في النزاعات التي تفضي إلى إقصائهم وتغييبهم، فتخلو الدولة ممّن يهدي إلى الحقّ، ويخفّف المفاسد ويكثّر المصالح، فإن إخلاء أمهات القرى وعواصم الدول من العلماء والدعاة الناصحين مفسدة عظيمة الضرر على الأمم.

ونرى بعض الدعاة يحرّض على أذية من خالفه من إخوته الدعاة؛ ليمنعهم من الدعوة، وهو يظنّ أنه يحسن صنعًا!

والرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «تَرَى المؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»[1]، هذا في المؤمنين عامّة، فكيف بالدعاة!

ومن أعظم الوصايا لأهل الدعوة وصيّة النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ وأبي موسى الأشعريّ حين بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى اليَمَنِ، فقد قَالَ لهما: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»[2].

وسوف أبيّن بإذن الله تعالى في هذا البحث ما تيسّر لي من موازين منهاج النبوّة في الدعوة في كنف الدولة. وقد مَنَّ علي اللهُ تعالى بتحرير هذا البحث، وأنا في أمّ القرى شرفها الله

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، ح ٦٠١١.

[2] البخاري، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، ح ٣٠٣٨

تعالى، وقد وقع في نفسي أن أسميه: **"الدعوة إلى الله في كَنَف أمّ القرى"**.

أسأل الله تعالى أن يتقبّله بقبول حسن، وأن ينفعني والمسلمين بما فيه من الخير، وأن يبارك في أعمالنا، ويتجاوز عن سيئاتنا.

محمد بن بشر القباطي، مكة المكرمة ١٤ شوال ١٤٤٧هـ.

المبحث الأول: الدعوة على منهاج النبوة في كَنَف الدولة المكيّة:

لقد دعا الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم في أمّ القرى ثلاث عشرة سنة؛ حتى أقاموا الحجّة، وكان الحكم والسلطان والدولة والهيمنة في مكة قبل الهجرة للمشركين الذين صبغوا الحياة بحكم الجاهليّة، فَدَنَّسُوا بيتَ الله الحرام بأصنامهم ونُصبهم وشركهم، وشرعوا لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله تعالى.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه يدعون ميسرين ومبشّرين ومنذرين، ولم ترد الأخبار بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر أحدًا من أصحابه بتحطيم صنم أو الاعتداء على مشرك أو مشركة مع ما كان عليه المشركون من الإثم والعدوان، فقد كانوا عاكفين على أصنامهم، ويطوفون

بالبيت الحرام عراة، ويعتدون على الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم.

والسؤال: لماذا كفّ المسلمون أيديهم، وهم يشاهدون تلك المنكرات العظام والدولة معادية للإسلام؟ لماذا لم يبادروا إلى التضحية بأنفسهم أو بطائفة من المؤمنين؛ فيغيروا ما استطاعوا من تلك المنكرات الجسام بأيديهم؟

أتراهم تركوا ذلك خوفًا على أنفسهم وطمعًا في الحياة الدنيا؟ أم كانوا على منهاج مستقيم يأمر برعاية المصالح وفعل الأصلح والأنفع عاجلًا وآجلًا، وينهى عن الشرور والفساد عاجلًا وآجلًا، فهم سائرون عليه لا يتعدّون موازينه ولا يخالفونها؟ والجواب ظاهرٌ بيّنٌ، وهو أنهم كانوا قائمين على أمر الله تعالى بما شرع، عاملين بموازين منهاج النبوّة.

المطلب الأول: من موازين فقه الدعوة في كَنَف الدولة المكيّة:

الميزان الأول: التفقّه والاستعداد الإيماني قبل الدعوة والتبليغ، ومن الأدلّة على ذلك:

الدليل الأوّل: قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1]، "اقْرَأْ" هذا هو أول أمر نزل به القرآن، والأمر للوجوب، والقراءة وسيلة لتحصيل العلم والإيمان والفقه والحكمة، وقد قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن، وقرأه على غيره، فعلم وعلّم، فالقراءة تزوّد العبد بالعلم الذي يهتدي به، وتمدّه بالنور الذي يخرج به الناس من الظلمات بإذن الله

[1] سورة العلق الآية (١)

تعالى، وكلما ازداد العبد قراءة، ازداد علمًا وحكمة وإيمانًا ويقينًا.

والدليل الثاني: قول الله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[1]، فقد أُمروا بقيام الليل إلا قليلًا وبترتيل القرآن الكريم؛ ليجمعوا بين القراءة والعبادة، وفي الترتيل زيادة تدبّر وتخشّع، وهما موردان من أعظم موارد التفقّه والإيمان.

وقد يسأل سائل: كم كان الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه يقضون من الوقت في تدبّر القرآن الكريم وتعلُّمه؟ تبصّرنا سورةُ المزمّل بشيء عظيم في هذا الأمر، فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ

[1] سورة المزمّل الآيات (٢-٤)

وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[1]، وثلثا الليل يقاربان ثماني ساعات، ونصفُه قد يقارب ستّ ساعات، وثلثُه قد يقارب أربع ساعات، هذا في الليل، ومعلوم أنهم كانوا يقرؤون القرآن الكريم ليلًا ونهارًا، فيتزوّدون منه، ويستعدُّون للدعوة أحسن استعداد، ولذا كان أثرهم في القلوب عظيمًا، فالداعية الربّان بالعلم والإيمان أقوى أثرًا في قلوب الناس ممّن هو دون ذلك وفي كلّ خير.

[1] سورة المزمّل جزء من الآية (٢٠)

الميـزان الثـاني: قـول الله تعـالى: ﴿قُـمْ فَأَنْـذِرْ﴾[1]، هـذان أمران:

الأول: "قُـمْ"، والأمـر للوجـوب، وهـو أمـر بالقيـام والنهـوض ومفارقـة حـال الادّثار والدعـة والراحـة، ويسـتلزم النهـي عـن كـلّ مـا يضـادّ القيـام كـالوهْن والتراخـي والرقـود والقعـود، وفي هـذا دلالـة علـى أن الإنـذار يحتـاج إلى قـوّة وعـزم؛ للقيـام بـه حـقّ القيام.

والثـاني: "فَأَنْـذِرْ": العطـف بالفـاء يقتضـي المبـادرة والمسـارعة ونبـذ التراخـي والتسـويف، وفي الفـاء معـنى التعليـل، والمعـنى: قـم لتنـذر، "أَنْـذِرْ"، والأمـر بالإنـذار للوجـوب، وفي حـذف المفعـول بـه دلالـة علـى العمـوم، وفي هـذا العمـوم توسـيع

[1] سورة المدثر الآية (٢)

وفسحة، فلم يقيّد الإنذار بالأقربين أو غيرهم؛ لتكثير فرص الاستجابة، وتيسير الدعوة، فقد أمر بإنذار كلّ من يتوسّم الرسول صلى الله عليه وسلّم فيه خيرًا، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، قرشيًّا أو حبشيًّا.

وقد سارع محمد عليه الصلاة والسلام إلى تنفيذ أمر الله تعالى بالحكمة والبصيرة، فقام منذرًا خير قيام، واصطفى الأخيار الأبرار، ومكث في هذه الدعوة السريّة الرشيدة قرابة ثلاثة أعوام كما يذكر العلماء.

الميزان الثالث: قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1]، الأمر بالإنذار للوجوب، وهذا أمر بإنذار مقيّد، ففعل الأمر "أَنْذِرْ": فعل في سياق الإثبات، وقد قيّد بالمفعول

[1] سورة الشعراء الآية (٢١٤)

به، وهو "عَشِيرَتَكَ"، وعشيرتك نكرة مضافة إلى معرف تفيد العموم، وقد خصّصت بالصفة: الْأَقْرَبِينَ، فهذا الأمر أخصّ من السابق؛ لأنه مقيّد بالعشيرة الأقربين، وهم أهل الرجل الذين يرتفعون برفعته، وينتفعون بقوته، فينصرهم وينصرونه، ويحميهم ويحمونه، وهم مظنّة الإجابة، ولا يأبى قبول هذا الخير إلا من فسدت فطرته.

وقد امتثل النبي عليه الصلاة والسلام أمر الله تعالى، فصعِد على الصفا ونادى في عشيرته، وقد استعمل أساليب العرب في الإنذار: أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، كما ورد في الحديث الذي رواه أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال رسولنا عليه الصلاة وسلم: "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: يَا قَوْمِ ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ،

فَـأَدْلَجُوا، فَـانْطَلَقُوا عَلَـى مَهْلِهِـمْ ، فَنَجَـوْا، وَكَـذَّبَتْ طَائِفَـةٌ مِـنْهُمْ، فَأَصْـبَحُوا مَكَـانَهُمْ ، فَصَـبَّحَهُمُ الْجَـيْشُ ، فَـأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَـاحَهُمْ ، فَـذَلِكَ مَثَـلُ مَـنْ أَطَـاعَنِي ، فَـاتَّبَعَ مَـا جِئْـتُ بِـهِ ، وَمَثَـلُ مَـنْ عَصَـانِي ، وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ)[1].

وجـاءت صـورة تنفيـذ الأمـر في غايـة الحكمـة والبصـيرة كمـا وردت عَـن ابْـنِ عَبَّـاسٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمَـا قَـالَ: لَمَّـا نَزَلَـتْ: ﴿وَأَنْـذِرْ عَشِـيرَتَكَ الْأَقْـرَبِينَ﴾[2]، صَـعِدَ النَّـبِيُّ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ عَلَـى الصَّـفَا، فَجَعَـلَ يُنَـادِي: «يَا بَـنِي فِهْـرٍ، يَا بَـنِي عَـدِيٍّ» – لِبُطُـونِ قُـرَيْشٍ – حَـتَّى اجْتَمَعُـوا فَجَعَـلَ الرَّجُـلُ إِذَا لَمْ يَسْـتَطِعْ أَنْ يَخْـرُجَ أَرْسَـلَ رَسُـولًا لِيَنْظُـرَ مَـا هُـوَ، فَجَـاءَ أَبُـو لَهَـبٍ وَقُـرَيْشٌ، فَقَـالَ: «أَرَأَيْـتَكُمْ لَـوْ أَخْـبَرْتُكُمْ أَنَّ خَـيْلًا بِالـوَادِي تُرِيـدُ أَنْ تُغِـيرَ عَلَـيْكُمْ،

[1] البخاري، الجامع الصحيح، وأخرجه مسلم، الجامع الصحيح.

[2] سورة الشعراء الآية (٢١٤)

أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[1]،[2].

وقد يتساءل متسائل لماذا عاجل الله تعالى أبا لهب بالمؤاخذة، فأغلق باب التوبة دونه مع أن الله تعالى قد أمهل فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى؟ وممّا يبدو لي أنه داخل في الجواب أن موقف فرعون عندما دعاه موسى عليه السلام كان موافقًا للفطرة والعقل، فقد ذكر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ

[1] سورة المسد الآية (١-٢)

[2] البخاري، الجامع الصحيح، وأخرجه مسلم، الجامع الصحيح.

مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، فقد تلقّى فرعون الدعوة بما يدعو إليه العقل، فقد قال الله تعالى عن فرعون: (قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ). وأما أبو لهب فلم يحكّم العقل ولا الفطرة، فلم يطلب الحجة والبرهان بل ولا اتبع العرف، فقد كان الإنسان الجاهليّ يفرح ويفخر بفضائل أقربائه، وأما أبو لهب فقد اعتدى على صاحبِ الدعوة عليه الصلاة والسلام، وذلك بقوله: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ، واستخفّ بالدعوة المباركة، بقوله: أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فأبى واستكبر، وكان من الكافرين، فقطع اللهُ العزيزُ دابرَ أبي لهب، كما عاجل إبليس باللعنة.

[1] سورة المسد الآيات (١٠٤-١٠٦)

الميـزان الرابـع: الصَّـدْع بالـدعوة للنـاس كافّـة، ويتجلـى ذلـك في خـواتيم سـورة الحجـر في قـول الله تعـالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، فهـذان الأمـران العظيمـان هما عمـاد هـذه المرحلـة الجديـدة، فـإن الـدعوة في هـذه المرحلـة أقيمـت على **الصـدع بالرسـالة وحسـن العـرض، ولطـف الإعـراض عـن ردود أفعـال المشـركين الخبيثـة مـن الاسـتهزاء والسّـبّ والتهديـد والأذى بالأيدي...**

قـال الله تعـالى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ"، والأمـر بالصـدع للوجـوب، والصـدع "فِي اللُّغَـةِ الشَّـقُّ وَالْفَصْـلُ، فَقَوْلُـه تعـالى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ" أَيْ: فَـرِّقْ بَـيْنَ الْحَـقِّ وَالْبَاطِلِ"[2]، وقـد خاطـب الله تعـالى رسـوله عليـه الصـلاة والسـلام بلفـظ "اصـدع"؛ لينتقـل

[1] سورة الحجر الآية (٩٤)

[2] الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ج١٩/١٦٤-١٦٥ بتصرف يسير.

بالدعوة من مرحلة الإسرار إلى مرحلة الجهر واقتحام مجالس القوم ونواديهم، فهذه الكلمة المباركة تدلّ على أن ثمة موانع وحُجُبًا صنعها المشركون للحيلولة دون تبليغ الدعوة، فلا بدّ من شقّ تلك الحجب والحواجز والنفاذ بأمر الله تعالى إلى الناس. **وذهب بعض من المفسرين إلى أن الصدع هو الجهر بالدعوة**، ولا تعارض بين القولين.

وقال الله تعالى: "وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ"، الأمر بالأعراض عن سفاهة المشركين وكيدهم واستهزائهم؛ ليجمع همه وهمته على بلوغ غايته وتبليغ رسالته. وسياسة الإعراض في الدعوة أصل عظيم، والمشغولون بدفع سفاهة السفهاء وتفاهة التافهين يضيعون كثيرًا من جهودهم وطاقاتهم وأوقاتهم العزيزة فيما علاجه الإعراض عنه.

والجمع بين قوة العَرْض (الصَّدع) وحسن الإعراض عن سفاهة السفهاء يحقّق أحسن المقاصد، ويحفظ الطاقات مما يشغل عن الغايات الرفيعة، وتتفاوت قدرات الدعاة في ذلك، فمن الدعاة من يجيد الصدع، ولا يحسن الإعراض والدفع بالتي هي أحسن، ومنهم من يحسن الإعراض ويفرّط في الصدع بالحقّ، ومنهم من يصدع بغير ما أمر الله تعالى، ويعرض عمّن يجب الإنكار عليه.

وأما الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه فقد قاموا بالأمرين معًا على أكمل وجه. **وبهذه الآية انتقلت الدعوة من مرحلة الإسرار إلى مرحلة الصدع والجهر**. وقد تكفّل الله تعالى لرسوله بأنه كافيه المستهزئين، وهداه إلى ما يذهب به ضيق صدره الشريف، فأمره بالتسبيح بحمد ربه والسجود مع الساجدين، فقال تعالى:

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ *الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[1]، قال ابن عاشور: "وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُمْ بِوَصْفِ الْمُسْتَهْزِئِينَ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ كَفَاهُ اسْتِهْزَاءَهُمْ، وَهُوَ أَقَلُّ أَنْوَاعِ الْأَذَى، فَكِفَايَتُهُ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ الِاسْتِهْزَاءِ مِنَ الْأَذَى مَفْهُومٌ بِطَرِيقِ الْأَحْرَى"[2]، وقال الإمام الطبريّ: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ولقد نعلم يا محمد أنك يضيق صدرك بما يقول هؤلاء المشركون من قومك من تكذيبهم إياك واستهزائهم بك وبما جئتهم به، وأن ذلك يُحْرِجك (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) يقول: فافزع فيما نابك من أمر تكرهه منهم إلى الشكر

[1] سورة الحجر الآيات (٩٥-٩٩)

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، الدار التونسية للنشر – تونس طبعة ١٩٨٤م، ج١٤/٨٩.

لله والثناء عليه والصلاة، يكفِك الله من ذلك ما أهمّك، وهذا نحو الخبر الذي رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه كان إذا حَزَبَه أمر فَزِع إلى الصلاة. واعبد ربك حتى يأتيك الموت"[1].

[1] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج١٧/١٥٩

الميـزان الخـامس: الـدعوة بالحكمـة والموعظـة الحسـنة والجدال بالتي هي أحسن:

قـال الله تعـالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ وَجَـادِلْهُمْ بِالَّـتِي هِـيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّـكَ هُـوَ أَعْلَـمُ بِمَـنْ ضَـلَّ عَـنْ سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَـمُ بِالْمُهْتَـدِينَ﴾[1]، وفي الآيـة دلالات نتناولهـا في مسائل:

المسـألة الأولى: في قولـه تعـالى: "ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ": فعـل الأمـر "ادْعُ" للوجـوب، وقـد قيّـد بأمـور: **الأول:** "إِلَى سَـبِيلِ رَبِّـكَ"، فـلا تكـون الـدعوة مقبولـة إلا إذا كانـت إلى سـبيل الله، وقـد اختـار كلمـة: "ربّـك"؛ لمـا يـوحي بـه اسـم الـربّ مـن ألطـاف الربوبيّـة والرعايـة والعنايـة.

[1] سورة النحل الآية (١٢٥)

والثاني: "بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"، والحكمة وضعُ الشيء موضعه المناسب، فتخصّ كلّ إنسان بما يوافق عقله وحاله، "وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ": الرقائق التي تجذب القلوب من الترغيب والترهيب. **والثالث**: المفعول به وقد حُذف للدلالة على العموم، وتقديره الناس، فينبغي أن تكون دعوة الناس جميعًا مبنيّة على الحكمة والموعظة الحسنة.

المسألة الثانية: "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"، فعل الأمر "جَادِلْهُمْ" للوجوب، وقد قيّد بأمور: **الأول**: المفعول به، وهو الضمير المتصل، **والثاني**: "بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"، أي: بالطريقة التي تحقّق أحسن النتائج.

المسألة الثالث: "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"، في هذه الكلمات دعوة لتفويض نتائج

الـدعوة وآثارهـا إلى الله تعـالى، فاهتـداء المهتـدين وضـلال الضـالّين بيد الله تعالى.

الميـزان السـادس: الـدعوة إلى الله تعـالى مـنهج حيـاة الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام وأتباعـه: قـال الله تعـالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَـبِيلِي أَدْعُـو إِلَى اللَّهِ عَلَـى بَصِـيرَةٍ أَنَا وَمَـنِ اتَّبَعَـنِي وَسُـبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

"قُـلْ": هـذا الأمـر للوجـوب، وقـد قُيّـد فعـل الأمـر بمقـول القـول، وهـو: "هَـذِهِ سَـبِيلِي أَدْعُـو إِلَى اللَّهِ عَلَـى بَصِـيرَةٍ أَنَا وَمَـنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ".

"هَـذِهِ سَـبِيلِي": بـدأ بالاسـم الـذي يشـار بـه للقريـب الحاضـر المشـاهد: "هَـذِهِ"، واسـم الإشـارة يحملـك علـى استحضـار المشـار إليـه كأنـه رأي العـين، فكأنـك تشـاهد سـبيل رسـول الله بعينـك. "سَـبِيلِي": خـبرُ المبتـدأ، وقـد عُـرّف بالإضـافة،

[1] سورة يوسف الآية (١٠٨)

وتعريف المبتدأ والخبر يفيد الحصر، أي: هذه سبيلي لا سبيل لي غيرها. "أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي": هذه الجملة يجوز أن تكون جملة حالية أي: داعيًا إلى الله... ويجوز أن تكون بيانية مفسرة كأن سائلًا يسأل: ما سبيلك؟ فيجيب: "أَدْعُو إِلَى اللَّهِ..."، والفعل: "أَدْعُو": فعل مضارع، وقد استعمل صيغة المضارع؛ ليدل على التجدّد وعدم الانقطاع عن الدعوة أي: أدعو ما تجدّد لي الزمان وامتدّ بي العمر، وقد قيّد الفعل "أَدْعُو" بقيدين مذكورين: **القيد الأول**: "إِلَى اللَّهِ"، وهذا القيد يبيّن غاية الدعوة، وقد قُدّم على القيد الثاني؛ لأن المقاصد تقدم على الوسائل، **القيد الثاني**: "عَلَى بَصِيرَةٍ"، قيّدت الدعوة بكونها على بصيرة، واستخدم الحرف: "عَلَى" يفيد العلوَّ والتمكُّن.

قولــه تعــالى: "أَنَا وَمَــنِ اتَّبَعَــنِي": ضــمير المــتكلّم توكيــد للفاعل المستتر في الفعل: أدعو، ثم عطف عليه ومن اتبعني.

"وَسُــبْحَانَ اللَّهِ وَمَــا أَنَا مِــنَ الْمُشْــرِكِينَ": هــذه الجملــة معطوفــة علــى جملــة: "أَدْعُــو إِلَى اللَّهِ.."، أدعــو وأســبح، ويفهــم منــه أنــني أقــوم بــواجبي في هدايــة الآخــرين ودعــوتهم، وأنا أزكــي نفســي بالتســبيح والعبــادات المطلوبــة؛ لأن للداعيــة نــوعين مــن الوظــائف يقــوم بهــا: وظــائف لازمــة النفــع كقيــام الليــل، ووظــائف متعدّية النفع كالتعليم والدعوة.

المطلب الثاني: نماذج من منهاج النبوّة في الدعوة إلى الله قبل الهجرة: وسأذكر لكم أيها الكرام حديثين عظيمين؛ لتدركوا جانبًا من فقه الدعوة إلى الله تعالى وفق منهاج النبوّة:

الحديث الأول: عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، قَالَ: "شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: "كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ،

حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"[1].

وهنا قد يسأل سائل: لماذا لم يستنصر لهم الرسول عليه الصلاة والسلام حفظًا لأصحابه ودفعًا لظلم الظالمين، أليست نصرة المستضعفين واجبة؟ الجواب أن سنّة الله تعالى قد جرت بابتلاء المؤمنين بالبأساء والضراء، وبالإملاء والإمهال للظالمين، وقد جعل الله تعالى لكلّ شيء قدرًا وأجلًا مسمى، وقد ابتلاهم بذلك الأذى لمصالح هي أعظم نفعًا لهم في الدنيا والآخرة، لقد ابتلاهم؛ ليمحصّهم، ويميز الخبيث من الطيّب، ويرفع درجات الذين صبروا على ما أصابهم، وليُمْهِل المشركين رجاء إسلامهم، فيسلم من كتب الله تعالى له الخير، فتكثر

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، دار الشعب – القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، بَابُ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلَامِ، ح ٣٦١٢.

بدخولهم دين الله تعالى الطاعات، ويزداد المسلمون قوّة، وليزداد المجرمون إثمًا فيستحقَّ الذين ختم الله على قلوبهم الأخذ الأليم.

الحديث الثاني: في الحفاظ على أمّة الدعوة الكافرة

رجاء إسلام ذريّاتهم: فقد صبر الرسول عليه الصلاة والسلام على الأذى رجاء إسلام المشركين الظالمين، ورجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له، وبعض الدعاة اليوم يرجو زوال من يخالفه من المسلمين، لقد صبر الرسول عليه الصلاة والسلام على مفسدة أذى المشركين وإعراضهم رجاء حصول مصالح أعظم نفعًا في الدنيا والآخرة من ذريّات المشركين التي لا تزال في أصلابهم، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ

العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[1].

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، دار الشعب – القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، كتاب بدء الوحي، باب الشُّرُوطِ مَعَ النَّاسِ بِالْقَوْلِ ح ٣٢٣١، وأخرجه مسلم بن الحجاج، في الجامع الصحيح، المسمى بصحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ١٣٩٢هـ، في الجهاد والسير باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين رقم ١٧٩٥.

"قرن الثعالب" يبعد عن الطائف قرابة ستة وأربعين كيلو متر ويسمى اليوم السيل الكبير، وهو ميقات أهل نجد والقادمين عبر الطائف، قال ابن حجر في الفتح: "ذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي الْمَغَازِي عَنِ بن شِهَابٍ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا مَاتَ أَبُو طَالِبٍ تَوَجَّهَ إِلَى الطَّائِفِ رَجَاءَ أَن يؤوه فَعَمَدَ إِلَى ثَلَاثَةِ نَفَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ وَهُمْ سَادَتُهُمْ وَهُمْ إِخْوَةُ عَبْدِ يَالِيلَ وَحَبِيبٌ وَمَسْعُودٌ بَنو عَمْرو فَعرض عَلَيْهِم نَفسه وشكى إِلَيْهِمْ مَا انْتَهَكَ مِنْهُ قَوْمُهُ فَرَدُّوا عَلَيْهِ أقبح رد وَكَذَا ذكره بن إِسْحَاق بِغَيْر إِسْنَاد مطولا وَذكر بن سَعْدٍ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ الْمَبْعَثِ وَأَنَّهُ كَانَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي طَالِبٍ وَخَدِيجَةَ قَوْلُهُ عَلَى وَجْهِي أَيْ عَلَى الْجِهَةِ الْمُوَاجِهَةِ لِي قَوْلُهُ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ هُوَ مِيقَاتُ أَهْلِ نَجْدٍ وَيُقَالُ لَهُ قَرْنُ الْمَنَازِلِ أَيْضًا وَهُوَ عَلَى يَوْمٍ

وَلَيْلَةٍ مِنْ مَكَّةَ وَقَرْنٌ كُلُّ جَبَلٍ صَغِيرٍ مُنْقَطِعٍ مِنْ جَبَلٍ كَبِيرٍ"[1]، "الأخشبين هما جبلا مَكَّة قعيقعان وَأَبُو قبيس سميا بذلك لعظمهما وخشونتهما"[2].

[1] ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ، ج٦/٣١٥

[2] ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المرجع السابق، ج١/٧٦.

المبحث الثاني: من موازين فقه الدعوة في كنف الدولة في المرحلة المدنيّة:

لقد مكث الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث عشرة سنة داعيًا إلى الله تعالى في كنف أمّ القرى وكانت الدولة على مكة للمشركين، فلما أدّى ما تعيّن عليه من أمر الدعوة وإقامة الحجّة، أذن الله تعالى له بالهجرة إلى المدينة المباركة؛ ليقيم دولة الإسلام، وليقوم هو وأصحابه بالدعوة في كنف دولة الإسلام وقد استجدّت حقوق جديدة للواقع الجديد، وسوف نبيّن ما تيسّر من موازين فقه الدعوة في كنف الدولة.

الميـزان الأول: انتقـال حكـم الـدعوة مـن العمـوم إلى الاختصـاص: فقـد كانـت الـدعوة فـرض عـين علـى كـلّ مُكلَّـف، ثمّ صـارت فـرض كفايـة بقـول الله تعـالى: ﴿وَلْـتَكُنْ مِـنْكُمْ أُمَّـةٌ يَـدْعُونَ إِلَى الْخَـيْرِ وَيَأْمُـرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

"وَلْـتَكُنْ مِـنْكُمْ أُمَّـةٌ": قـال ابـن عاشـور: "صِـيغَةُ وَلْـتَكُنْ مِـنْكُمْ أُمَّـةٌ صِـيغَةُ وُجُـوبٍ؛ لِأَنَّهَـا أَصْـرَحُ فِي الْأَمْـرِ مِـنْ صِـيغَةِ افْعَلُـوا؛ لِأَنَّهَـا أَصْـلُهَا"[2]، والمعـنى ولتختـصّ طائفـة مـنكم وهيئـة مـن ذوي الكفـاءة بأداء وظـائف الـدعوة إلى الخـير والأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر؛ لأن الاختصـاص فيـه توزيـع للمسـؤوليات بإسـنادها إلى أهلهـا، ويسـهّل المراقبـة والمحاسـبة؛ للاسـتدراك

[1] سورة آل عمران الآية (١٠٤)

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، مرجع سابق، ج٤/ ٣٧

والإصلاح. وحرف الجرّ "مِن" في الآية للتبعيض كما ذهب إلى ذلك جمع من العلماء كالإمام الطبريّ[1]، وهذا العصر عصر التخصصات، فما أحوج الأمة إلى المختصّين الصابرين المرابطين على هذه الثغور العظيمة القدر والأثر.

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج٧/٩٠

الميـزان الثـاني: الثبـات في المواقـع المتخصّصـة والثغـور والمنـع مـن الانتقـال وتفريـغ الثغـور، واسـتنفار طائفـة مـن كـلّ فرقـة؛ ليتفقّهـوا في الـدين وللقيـام بفريضـة الإنـذار: قـال الله تعـالى: ﴿وَمَـا كَـانَ الْمُؤْمِنُـونَ لِيَنْفِـرُوا كَافَّـةً فَلَـوْلَا نَفَـرَ مِـنْ كُـلِّ فِرْقَـةٍ مِـنْهُمْ طَائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا فِي الـدِّينِ وَلِيُنْـذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

في هـذه الآيـة معـانٍ عظيمـة وعميقـة ودقيقـة ضـروريّة للحفـاظ علـى كيـان الدولـة والأمـة، فـالمؤمنون مؤتمنـون علـى مصـالح دولـتهم وأمـتهم، وقُـوْتهم، وقُـوّتهم، إنهـا تـدعو إلى الحفـاظ علـى كيـان الدولـة والأمـة وتثبيـت كـلّ فرقـة في مواقـع عملهـا ومـواطن وظائفهـا، فقـد اسـتهلّ ربّنـا سـبحانه وتعـالى هـذه الآيـة بقولـه: "وَمَـا كَـانَ الْمُؤْمِنُـونَ لِيَنْفِـرُوا كَافَّـةً"، فحـذّرهم مـن النَّفْـر

[1] سورة التوبة الآية (١٢٢)

جميعًا إلى الجهاد مما لم يستنفروا له، بل ينفر للقتال من استنفرهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأمرهم بأن تنفر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام طائفة من كلّ فرقة للتفقّه في الدين، فقال: "فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ"، فطلب العلم جهاد وليس تخلُّفا أو خلودًا إلى الدعة والراحة، فالفقه في الدين ضروريّ؛ حتى لا يضيّعوا أماناتهم ووظائفهم التي يقومون عليها لمصالح دولتهم وأمتهم ومجتمعهم وأنفسهم، فتذهب قوتهم ويتسلّط عليهم أعداؤهم، فأمرهم بالاعتدال في توزيع فروض الكفاية، وخصّ بالذكر التفقّهَ في الدين، ويلحق بالتفقّه غيره من فروض الكفايات.

وقد أورد ابن عاشور كلامًا بديعًا في تفسير هذه الآية، فقال: "كَانَ غَالِبُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ تَحْرِيضًا عَلَى

الْجِهَادِ وَتَنْدِيدًا عَلَى الْمُقَصِّرِينَ فِي شَأْنِهِ، وَانْتَهَى الْكَلَامُ قَبْلَ هَذَا بِتَبْرِئَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالَّذِينَ حَوْلَهُمْ مِنَ التَّخَلُّفِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا جَرَمَ كَانَتْ قُوَّةُ الْكَلَامِ مُؤْذِنَةً بِوُجُوبِ تَمَحُّضِ الْمُسْلِمِينَ لِلْغَزْوِ. وَإِذْ قَدْ كَانَ مِنْ مَقَاصِدِ الْإِسْلَامِ بَثُّ عُلُومِهِ وَآدَابِهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَتَكْوِينُ جَمَاعَاتٍ قَائِمَةٍ بِعِلْمِ الدِّينِ وَتَثْقِيفِ أَذْهَانِ الْمُسْلِمِينَ كَيْ تَصْلُحَ سِيَاسَةُ الْأُمَّةِ عَلَى مَا قَصَدَهُ الدِّينُ مِنْهَا، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَقُبَ التَّحْرِيضُ عَلَى الْجِهَادِ بِمَا يُبَيِّنُ أَنْ لَيْسَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ تَمَحُّضُ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ لِأَنْ يَكُونُوا غُزَاةً أَوْ جُنْدًا، وَأَنْ لَيْسَ حَظُّ الْقَائِمِ بِوَاجِبِ التَّعْلِيمِ دُونَ حَظِّ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ كِلَيْهِمَا يَقُومُ بِعَمَلٍ لِتَأْيِيدِ الدِّينِ، فَهَذَا يُؤَيِّدُهُ بِتَوَسُّعِ سُلْطَانِهِ وَتَكْثِيرِ أَتْبَاعِهِ، وَالْآخَرُ يُؤَيِّدُهُ بِتَثْبِيتِ ذَلِكَ السُّلْطَانِ وَإِعْدَادِهِ لِأَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ مَا يَضْمَنُ انْتِظَامَ أَمْرِهِ وَطُولَ دَوَامِهِ، فَإِنَّ اتِّسَاعَ

الْفُتُوحِ وَبَسَالَةَ الْأُمَّةِ لَا يَكْفِيَانِ لِاسْتِبْقَاءِ سُلْطَانِهَا إِذَا هِيَ خَلَتْ مِنْ جَمَاعَةٍ صَالِحَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالسَّاسَةِ وَأُولِي الرَّأْيِ الْمُهْتَمِّينَ بِتَدْبِيرِ ذَلِكَ السُّلْطَانِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَثْبُتْ مُلْكُ اللَّمْتُونِيِّينَ فِي الْأَنْدَلُسِ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَقَلَّصَ، وَلَمْ تَثْبُتْ دَوْلَةُ التَّتَارِ إِلَّا بَعْدَ أَنِ امْتَزَجُوا بِعُلَمَاءِ الْمُدُنِ الَّتِي فَتَحُوهَا وَوَكَلُوا أَمْرَ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِمْ.

وَإِذْ قَدْ كَانَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ قَدْ حَرَّضَتْ فَرِيقًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الِالْتِفَافِ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَزْوِ لِمَصْلَحَةِ نَشْرِ الْإِسْلَامِ نَاسَبَ أَنْ يُذْكَرَ عَقِبَهَا نَفْرُ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ لِيَكُونُوا مُرْشِدِينَ لِأَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ"[1].

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، مرجع سابق، ج٤/ ٥٨-٥٩

ولـولا: للتحضـيض، والتحضـيض طلـب فيـه إزعـاج، وقـد استعمل ربنـا سـبحانه وتعـالى كلمـة: "نَفَـرَ": وهـي تـدلّ علـى أمـرين: الأول: الابتعـاد والتـولّي بقـوة عـن شـيء مكـروه مسـتنكّر، والجهـل وقلّـة العلـم ممـا ينفـر منـه، والثـاني: توجّـه بقـوّة نحـو مطلـوب مرغـوب فيـه، والعلـم والتفقّـه ممـا ينفـر إليـه، والفرقـة أكـبر مـن الطائفـة، والطائفـة تطلـق علـى الواحـد وأكثـر، ثم قـال: "ليتفقهـوا": ولفـظ التفقُّـه يـدلّ علـى زيادة معـاناة ومعالجـة في تحصـيل الفقـه، والتفقّـه شـرط للإنـذار، وعلـوم اللسـان العـربيّ شـرط لفهـم القـرآن والسـنة، قـال الله تعـالى: ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِـنْ رَسُـولٍ إِلَّا بِلِسَـانِ قَوْمِـهِ لِيُبَـيِّنَ لَهُـمْ فَيُضِـلُّ اللَّهُ مَـنْ يَشَـاءُ وَيَهْـدِي مَـنْ يَشَـاءُ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِـيمُ﴾[1]، وكيـف يبـيّن الحـقّ مـن لا علـم له بلسان العرب الذي ورد به القرآن الكريم والسنة.

[1] سورة إبراهيم الآية (٤)

المطلب الثاني: نماذج من منهاج النبوّة في الدعوة إلى الله في كنف دولة الإسلام:

الحديث الأول: يبيّن لنا مشاهد ممّا جرى أيام الفتح، فنشاهد الرسول عليه الصلاة والسلام يعفو عن المشركين الذين آذوه، وعذبوا أصحابه، وقتلوا من قتلوا من المؤمنين، وأخذوا من الأموال ما أخذوا، ومع ذلك عفا عنهم، وردّ رسولُ الله مقولة سعد ابن عبادة: "اليوم يوم الملحمة" كما جاء في صحيح البخاريّ: "لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الفَتْحِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا، خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ، وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ، يَلْتَمِسُونَ الخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلُوا يَسِيرُونَ حَتَّى أَتَوْا مَرَّ الظَّهْرَانِ، فَإِذَا هُمْ بِنِيرَانٍ كَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا هَذِهِ، لَكَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ؟ فَقَالَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ: نِيرَانُ بَنِي

عَمْـرٍو، فَقَـالَ أَبُـو سُـفْيَانَ: عَمْـرٌو أَقَـلُّ مِـنْ ذَلِـكَ، فَـرَآهُمْ نَاسٌ مِـنْ حَـرَسِ رَسُـولِ اللَّهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ فَـأَدْرَكُوهُمْ فَأَخَـذُوهُمْ، فَـأَتَوْا بِهِـمْ رَسُـولَ اللَّهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ فَأَسْـلَمَ أَبُـو سُـفْيَانَ، فَلَمَّـا سَـارَ قَـالَ لِلْعَبَّـاسِ: «احْـبِسْ أَبَا سُـفْيَانَ عِنْـدَ حَطْـمِ الخَيْـلِ، حَـتَّى يَنْظُـرَ إِلَى المسْـلِمِينَ». فَحَبَسَـهُ العَبَّـاسُ، فَجَعَلَـتِ القَبَائِـلُ تَمُـرُّ مَـعَ النَّـبِيِّ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، تَمُـرُّ كَتِيبَـةً كَتِيبَـةً عَلَـى أَبِي سُـفْيَانَ، فَمَـرَّتْ كَتِيبَـةٌ، قَـالَ: يَا عَبَّـاسُ مَـنْ هَـذِهِ؟ قَـالَ: هَـذِهِ غِفَـارُ، قَـالَ: مَـا لِي وَلِغِفَـارَ، ثُمَّ مَـرَّتْ جُهَيْنَـةُ، قَـالَ مِثْـلَ ذَلِـكَ، ثُمَّ مَـرَّتْ سَـعْدُ بْـنُ هُـذَيْمٍ فَقَـالَ مِثْـلَ ذَلِـكَ، وَمَـرَّتْ سُـلَيْمُ، فَقَـالَ مِثْـلَ ذَلِـكَ، حَـتَّى أَقْبَلَـتْ كَتِيبَـةٌ لَمْ يَـرَ مِثْلَهَـا، قَـالَ: مَـنْ هَـذِهِ؟ قَـالَ: هَـؤُلَاءِ الأَنْصَـارُ، عَلَـيْهِمْ سَـعْدُ بْـنُ عُبَـادَةَ مَعَـهُ الرَّايَـةُ، فَقَـالَ سَـعْدُ بْـنُ عُبَـادَةَ: يَا أَبَا سُـفْيَانَ، اليَـوْمَ يَـوْمُ المَلْحَمَـةِ، اليَـوْمَ تُسْـتَحَلُّ الكَعْبَـةُ، فَقَـالَ أَبُـو سُـفْيَانَ: يَا عَبَّـاسُ حَبَّـذَا يَـوْمُ الـذِّمَارِ، ثُمَّ جَـاءَتْ كَتِيبَـةٌ، وَهِـيَ أَقَـلُّ

الكَتَائِبِ، فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ، وَرَايَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟ قَالَ: «مَا قَالَ؟» قَالَ: كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: «كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الكَعْبَةُ»[1].

والمتبادر إلى النفس والمتوقّع هو ما ظنّه سعد بن عبادة رضي الله عنه ونطق به بأن يوم الفتح يوم ملحمة وانتقام من المعتدين، ولكنّ الحديث يكشف لنا ميزان الدعوة النبويّة الذي يرجّح كِفّة التلطُّف بأهل مكة لكسب قلوبهم وترغيبهم في الإسلام، ويرجّح كفّة الحزم لتحريرهم من حبّ الطاغوت،

[1] البخاري، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، كِتَابُ المَغَازِي، بَابٌ: أَيْنَ رَكَزَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّايَةَ يَوْمَ الفَتْحِ؟ح ٤٢٨٠

فكسّر الأصنام، وكسَرَ معها كيد الشيطان؛ لأن إبقاء الأصنام بعد الفتح مفسدة وضلال.

الحديث الثاني: إنه حديث يأخذ بألباب الناظرين، فيه بيان لفقه الموازنات الذي تعامل به أهل الإسلام مع المشركين بعد قيام دولة الإسلام في مكة المكرمة، فعن حُمَيْدِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَخْبَرَهُ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَعَثَهُ فِي الحَجَّةِ الَّتِي أَمَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهَا قَبْلَ حَجَّةِ الوَدَاعِ، فِي رَهْطٍ يُؤَذِّنُونَ فِي النَّاسِ: «أَنْ لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ» فَكَانَ حُمَيْدٌ يَقُولُ: يَوْمُ النَّحْرِ يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ، مِنْ أَجْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ»[1]. وقَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: "ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا

[1] البخاري، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، ح ٤٦٥٧

عَلِـيٌّ فِي أَهْـلِ مِـنًى يَـوْمَ النَّحْـرِ: «لَا يَحُـجُّ بَعْـدَ العَـامِ مُشْـرِكٌ وَلَا يَطُـوفُ بِالْبَيْـتِ عُـرْيَانٌ»[1]. هـذا الحـديث يكشـف لنـا فقـه المـوازنات الـذي تعامـل بـه المسـلمون في مكـة المكرمـة بعـد الفـتح مع المشركين.

لقـد حـجّ المشـركون والمشـركات مـع المسـلمين في العـام التاسـع للهجـرة، وطـاف بعـض المشـركين والمشـركات بالبيـت الحـرام عـراة مـرددين كلمـات الشـرك، ولم ينقـل الـرواة أن أحـدًا مـن المسـلمين تعـرّض بالأذى بيـده أو لسـانه لمشـرك أو مشـركة... فـأيّ حكمـة وفقـه مـوازنات تحلّـى بـه هـؤلاء المؤمنـون وهـم أصحاب الدولة والسلطة؟

[1] البخاري، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، ح ٣٦٩

الحديث الثالث:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى اليَمَنِ قَالَ: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»[1].

في هذا الحديث موازين عظيمة من موازين الدعوة الراشدة على منهاج النبوّة:

التيسير ونبذ التعسير، والتبشير ومجافاة التنفير، والتطاوع والكفّ عن الاختلاف.

وقد اختصّ الرسول عليه الصلاة والسلام معاذًا دون أبي موسى الأشعريّ بوصيّة رعايةً للمقام والواقع الجديد الذي لم يكن معاذ ليدركه باجتهاده؛ لأنه مبتعث إلى أهل كتاب، فعَنِ

[1] البخاري، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، ح ٣٠٣٨

ابْـنِ عَبَّـاسٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمَـا، قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ لِمُعَـاذِ بْـنِ جَبَـلٍ حِـينَ بَعَثَـهُ إِلَى الـيَمَنِ: «إِنَّـكَ سَـتَأْتِي قَوْمًـا أَهْـلَ كِتَـابٍ، فَـإِذَا جِئْـتَهُمْ، فَـادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْـهَدُوا أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّـدًا رَسُـولُ اللَّهِ، فَـإِنْ هُـمْ أَطَـاعُوا لَـكَ بِـذَلِكَ ، فَـأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَـدْ فَـرَضَ عَلَـيْهِمْ خَمْـسَ صَـلَوَاتٍ فِي كُـلِّ يَـوْمٍ وَلَيْلَـةٍ، فَـإِنْ هُـمْ أَطَـاعُوا لَـكَ بِـذَلِكَ، فَـأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَـدْ فَـرَضَ عَلَـيْهِمْ صَـدَقَةً تُؤْخَـذُ مِـنْ أَغْنِيَـائِهِمْ فَـتُرَدُّ عَلَـى فُقَـرَائِهِمْ، فَـإِنْ هُـمْ أَطَـاعُوا لَـكَ بِـذَلِكَ، فَـإِيَّاكَ وَكَـرَائِمَ أَمْـوَالِهِمْ وَاتَّـقِ دَعْـوَةَ المِظْلُـومِ، فَإِنَّـهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»[1].

وفي روايـة لمسـلم: عَـنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ، أَنَّ رَسُـولَ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ لَمَّـا بَعَـثَ مُعَـاذًا إِلَى الْـيَمَنِ، قَـالَ: «إِنَّـكَ تَقْـدَمُ عَلَـى قَـوْمٍ أَهْـلِ كِتَـابٍ، فَلْـيَكُنْ أَوَّلَ مَـا تَـدْعُوهُمْ إِلَيْـهِ عِبَـادَةُ اللهِ عَـزَّ

[1] البخاري، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، ح ١٤٩٦، ومسلم ح٢٩

وَجَلَّ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[1].

[1] مسلم، مسلم بن الحجاج، في الجامع الصحيح، المسمى بصحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ١٣٩٢هـ، ح٣١.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام على البشير النذير والسراج المنير وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وبعد: فإننا معاشر الدعاة نعيش في **كنف دولِ أمّة الإجابة**، ومع ذلك نرى عنايتنا باستقرار دولنا وتتميم عوامل قوّتها دون المستوى الممكن لنا، بل نرى من الدعاة من يغلو، فيسقط حقوق الدولة التي يدعو في كنفها، فيهيّج الفتن، ويثير الشرور فتعظم المفاسدُ، وتفوت المصالحُ المقصودة، ونرى منهم من يفرّط في جنب الله تعالى، فيبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، فيضيّع نفسَه ويضيّع دعوته وأمّته، ويحرم الأمة بركة الدعوة الصادقة، فيكون منفِّرًا ممقوتًا لا يؤبه به ولا بقوله، والحكمة توجب وضع كلّ شيء موضعَه، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[1].

وقد أتممت هذا البحث ١٤٤٧/١٠/١٤هـ، الساعة الحادية عشرة ليلة الجمعة، الموافق ٢٠٢٦/٤/٢م، في مكّة المكرمة.

[1] سورة آل عمران الآية (٨)